الفصل الأول

التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي

١- مملكة غانا.

٢- مملكة مالي.

٣- مملكة سنغاي.

٤- مملكة الكانم- بورنو.

مظاهر التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي:

أولا- تمبكت.

ثانيا- جني.

ثالثا- غاو.

obeikandl.com

التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي:

العرب في العصور الوسطى هم أول من أطلق مصطلح بلاد السودان على الشعوب التي سكنت جنوب الصحراء الكبرى، ويمكن تحديدها جغرافيا بالمنطقة الواسعة التي تمتد بين الصحراء الأفريقية الكبرى في الشمال والغابات الاستوائية في الجنوب، وشرقا تمتد إلى مرتفعات الحبشة وغربا إلى المحيط الأطلسي. واصل تسمية بلاد السودان مستوحى من لون البشرة التي يتميز بها سكان تلك المنطقة. (١)

انتشر الإسلام في الشمال الأفريقي على يد العرب الذين قادوا موجة الفتوحات التي عمت المنطقة حتى سواحل المحيط الأطلسي. واختلط العرب بسكان البلاد الأصليين اختلاطا كاملا، واصبح اغلبهم مسلمين واتخذوا اللغة العربية لغة لهم. ونتيجة لهذا الاختلاط ظهر جيل جديد حمل لواء الإسلام والثقافة العربية عبر الصحراء الأفريقية الكبرى، وظلت بلاد المغرب مرتبطة ارتباطا عضويا بالكيان الأفريقي الممتد من دار فور حتى نهر السنغال؛ يؤثر فيه ويتأثر به اقتصاديا وحضاريا، ولم تكن الصحراء الكبرى حاجزا لمنع ذلك التواصل بين شمال أفريقيا وبلاد السودان.

ولقد تعارف الدارسون على تقسيم بلاد السودان إلى الأقسام التالية :

أولا: السودان الغربي، ويشمل حوض السنغال وبوركينا فاصو والنيجر الأوسط. وثانيا: السودان الأوسط، و يشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد. وثالثا: السودان الشرقي، و يتكون من مناطق النيل وروافده جنوب بلاد النوبة. (٢)

تميزت بلاد السودان الغربي، منذ القدم وحتى القرن الثالث عشر، بوفرة أنفس الثروات وهو الذهب، الذي أستعمل للزينة وصناعة الأواني(٣). وعاشت في هذه المنطقة أجناس مختلفة من أبرزها، قبائل السوننك، وقبائل التكرور وقبائل الولوف وقبائل البمبارا وقبائل الموسي وقبائل السنغاي(٤).

و سنتعرض هنا إلى أهم الممالك، في الغرب الأفريقي، التي كونت حضـــارات خاصة لها وتأثرت بصورة واضحة بالمؤثرات العربية الإسلامية و منها :

١ - مملكة غانا.

٢- مملكة مالي.

٣- مملكة سنغاي.

٤- مملكة الكانم-يورنو.

١- مملكة غانا :

تعد مملكة غانا من اقدم الممالك التي ظهرت في السودان الغربي، ويمتد عمرها من القرن الثالث الميلادي إلى القرن الثالث عشر الميلادي. وامتدت حدودها في ارض واســعة شملت جنوب موريتانيا وشرقي السنغال وجزء من مالي[٥]. ولابد هنا من ضرورة التنويه إلى أن غانا التي نتحدث عنها الآن هي ليست غانا الحالية .

وبالنظر لعدم توفر المدونات التاريخية التي توضح أصل تسمية غانا، فقد اختلفــت الآراء والتفسيرات، ويرى البعض أن "غانا سمة لملوكهم واسم البلد أو كار واسم ملكهــم اليوم وكان محمود السيرة محبا للعدل مؤثرا للمسلمين"[٦].وظهرت دراسة حديثة يرى فيها الدكتور الدالي أن كلمة غانا تعني الغنى والثراء الكبير [٧].

وتقع مملكة غانا بين الانحنائين المتقابلين لنهري السنغال والنيجر، وضمت بشكل أساسي أوكر في الشمال والهوذ في الجنوب، كما أن موقعها عند التقاء منطقتين إحــداهما صحراوية والثانية سودانية تميزت بإنتاج محاصيل متنوعة ومتممة لبعضها، جعلها منطقــة تتمتع بمكانة تجارية بارزة. وتألف سكان غانا مــن عــدة عناصــر أشــهرهم قبائــل السوننك(*Soninka*) وهم فرع من قبائل الماندنجو والعرب والفولانيين[٨].

لقد ازدهر اقتصاد غانا لرخائها وأمنها و اعتمادها على التجــارة أولا، وعلــى موقعها الاستراتيجي بين مناجم الذهب في بامبوك وبوري إلى الجنوب، ومناجم الملــح في

الشمال ثانيا، وبسبب نظام الضرائب المنظم للتجارة الخارجية والداخلية ثالثا، والذي قاد هذا إلى فتح البلاد تجاريا بين شمال الصحراء وجنوبها، فكان هـذا مصـدر غـنى دائـم لمملكتهم[٩].

كان الهدف الرئيسي لحكام غانا هو استمرار تدفق الملح القادم من" الخارج إليهم من ناحية الإسلام فإنه لا قوام لهم إلا به ..."[١٠]، وكذلك تصدير كميات كافية مـن الذهب لتسديد قيمة المستوردات، والغاية المهمة من هذه السياسة هـو الحفـاظ علـى سلطانهم ونفوذهم. ولغرض إنجاح هذه السياسة الاقتصادية واستمرارها، دفعتهم إلى فرض نفوذهم شمال ، ا للإشراف والسيطرة على مناطق إنتاج الملح، وجنوبا للسيطرة التامة على بيع الذهب. وهذا ما عبر عنه ابن حوقل بقوله " وغانة أيسر من على وجه الارض مـن ملوكها بما لديه من الاموال والمدخرة من التبر المثار على قديم الايـام للمتقـدمين مـن ملوكهم"[١١].

لقد اعتمدت مملكة غانا على سياسة مالية، أحكمت من خلالها عمليـة اوجـه الإنفاق للأموال التي تكدست في خزينتها بهدف تحقيق مصالحها. فقد أعطـت أولويـة للإنفاق على الجيش وأجهزة الحكم التنفيذية بكل سخاء. حيث كانـت تقـدم الهـدايا المنتظمة لزعماء القبائل والأقاليم لضمان ولائهم والسيطرة على الممالك المجاورة. ويمكننـا اعتبار ما قامت به غانا هو محاولة منها لجعل الإقليم الأفريقي موحداً وخاضعاً لنظام هدفه الحفاظ على القانون، ومن اجل ذلك فقد تمكنت هذه المملكة من تأسيس جـيش بلـغ تعداده آلاف المسلحين بالقسي والرماح، وذلك لمتانة اقتصادها ووفـرة المعـادن فيهـا، وأحرزت غانا نجاحا باهراً في تحقيق تطلعات ملوكها. ومن الجدير بالـذكر أن أوروبـا وبريطانيا بالذات استمرت لفترة طويلة من الزمن معتمدة على معادن أفريقيا[١٢].

وعلى الرغم من قدم مملكة غانا، إلا أن ذروة مجدها وقمة ازدهارها لم تبلغهما إلا بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديين، عندما ظهرت المؤثرات العربيـة الإسـلامية

بشكل جلي فيها. إذ وصف البكري مدينة كومبي صالح، عاصمة المملكة، بأنها واسعة الأرجاء تزينها الأسواق وأشجار النخيل والزيتون وكذلك منازلها الجميلة[١٣]. ويستمر البكري في وصف العاصمة وصفاً مسهباً عندما ذكر بأنها مدينة كبيرة تضم حيي: أولهما يقع في السهل ويقطنه المسلمون وأغلبهم من التجار و العلماء والفقهاء وفيه أيضا اثنا عشر مسجدا، أما الحي الثاني؛ فهو الحي الملكي الذي يقع على بعد ستة أميال من الحي الأول وتحيط به غابات مقدسة – حسب اعتقادهم – وكانت طبقة من الكهنوت تتردد على هذه الغابات بسبب ما احتوته من "أفاعي مقدسة ومدافن للملوك"، وفيها سجون مخيفة. وتحتوي أيضاً على مسجد يؤمه المسلمون الوافدون إلى الملك والعاملون في الحي، وفيها أيضاً قصر الملك، مزين بالنقوش والرسوم، والحيان متصلان بشارع عريض.

ونستدل من هذا الوصف على عمق التأثير الإسلامي، نتيجة لوجود المساجد والمدارس والفقهاء والعلماء، والدليل الأكثر أهمية هو أن العديد من ملوك هذه المملكة يرجعهم المؤرخون إلى أصول عربية، فالقاضي محمود كعت يرجعهم إلى صنهاجة أو إلى البيضان، وهم عرب الشمال الأفريقي[١٤]. أما مؤلف كتاب وصف أفريقيا ، فيذكر أنهم كانوا محكومين في عصر دخولهم الإسلام من قبل اكبر أمراء ليبيا[١٥].

ومما يزيد من صورة ازدهار مملكة غانا الصورة التي قدمها لنا الإدريسي عن سيادة العدل بين أبناء الرعية بسبب حرص ملوك غانا على نشره بينهم، حيث يقول كان الملك من " اعدل الناس فيما يحكى عنه، ومن سيرته أن له جملة قواد يركبون إلى قصره في كل صباح... فإذا اجتمع إليه قواده، ركب وسار يمشي في أزقة المدينة وسائر البلد، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له، فلا يزال حاضرا بين يديه، حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع إلى قصره"[١٦]. وهو يفعل ذلك مرتين: المرة الأولى قبل الظهيرة و الثانية بعد الظهيرة، أما في الجولة المسائية فلم يكن يتوقف ليستمع إلى شكوى أحد، بل كان يجلس للنظر في مظالم الناس. ولا بد لنا من الإشارة إلى أن ظاهرة جلوس الملك للنظر في المظالم

التي تقدم إليه، هي مظهر عربي إسلامي معروف حيث كان خلفاء المسلمين في الدولتين الأموية والعباسية يجلسون في أيام معينة للنظر في مظالم الناس ورفع الظلم عنهم .

ومن هذا يتبين لنا أن ملوك غانا لم يتوصلوا إلى إقامة مملكة عظيمة الشأن إلا بإقامة دعائم دولتهم، واستمرار حفاظهم عليها عن طريق تنظيم مداخيل خزينة الدولة، والاعتماد على جيشهم الذي أقاموه، وحفاظهم على العدل الذي نشروه بين أفراد رعيتهم .

لقد سقطت مدينة كومبي (عاصمة مملكة غانا) بأيدي جيوش دولة المرابطين، وانتصرت عليها عام ١٠٦٧م، بعد حرب طويلة استمرت أربعة عشر عاما، متواصلة ومن دون توقف وبذلك أصبحت جزءا من دولة المرابطين، ومنها توسعت قاعدة انتشار الإسلام في مناطق غرب أفريقيا ووسطها. إلا أن حكم المرابطين لم يستمر طويلا بسبب ظروف دولتهم، والصراع بين أمرائها على السلطة، فظهر الانحلال فيها وتفتت أقاليمها، وبدأت تستقل تباعا، فأصبحت مملكة غانا منطقة طرد وليس استقرار حيث تحولت القوافل عنها إلى تمبكت وغاو وجني، والتي أصبحت من أشهر المراكز الثقافية في غرب أفريقيا. وبدا أغنياء المسلمين يلجأون إلى مدينة ولاته وخاصة بعد نهب العاصمة كومبي على يد سوماورو كانتي، وهو أحد زعماء قبيلة الصوصو، في عام ١٢٠٣، وتدريجا دخلت غانا في تبعية الصوصو كاملة[١٧] ، وبعدها دخلت تحت سلطة مملكة مالي، المسيطرة على بلاد غانا، واستمر اسم غانا مخلداً في التاريخ إلى وقتنا الحاضر، حيت خلد اسمها من قبل الوطنيين من شعب ساحل الذهب عند الاستقلال عام ١٩٥٧.

٢ ــ مملكة مالي :

شملت مملكة مالي جمهورية مالي الحالية وأعالي السنغال الشرقي وشمال غينيا وشمال بوركينا والبنين والجنوب الأقصى من موريتانيا[١٨]. وجاء وصف مساحتها على ان طولها مسير أربعة اشهر وعرضها بمسير ثلاثة اشهر [١٩].

تعد مالي من الممالك الواسعة المساحة في أفريقيا الغربية، ويعد شعب الماندنجو المؤسس لها وهم من أوائل الشعوب المعتنقة للإسلام. ومن يتتبع تاريخ هذه المملكة يجد أنها كانت تدين بولائها لغانا، وبمرور الزمن كان لابد من بديل يخلف الأخيرة من الناحيتين الاقتصادية والسياسية، وتكون له السيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى مناجم الذهب الموجودة بين نهري السنغال والنيجر، وكان البديل هو مملكة الصوصو الواقعة إلى الجنوب من غانا ، ومن أشهر ملوكها، سوماورو كانتي، الذي حكم بين الأعوام (١٢٠٠ -١٢٣٥ م)، والذي قرر أن يكون وارثا لغانا فاستولى عليها، ولكن مملكة الصوصو لم تعمر طويلا حيث تمكن شعب الماندنجو[٢٠] من الوقوف بوجه الصوصو والانتصار عليهم في معركة كيرينا بزعامة سوندیا تاكيتا[٢١]، أو كما يسميه بعض الكتاب ماري جاطة، وكلا الاسمين يعنيان، الأسد الأمير أو الأمير الأسد[٢٢].

لقد كان عام ١٢٣٥ بداية نشوء مملكة مالي وتوسعها، حيث اصبح المسرح خاليا أمام سونديا تاكيتا الذي سيطر بسهولة على مملكة الصوصو وتوابعها: البغانا وشمالي بيليدوغو وواغادو وباكونو ومدينة كومبي واستمر توسعه باتجاه الغرب، واندفع إلى مناطق الذهب الكبرى في بامبوق وباتجاه السنغال الأدنى وغامبيا السفلى وديار التكرور[٢٣].

وفي عام ١٢٤٠ ألحقت غانا نهائيا بمالي وتوسعت نحو الشرق، واعتمدت في إدارة أقاليمها على رؤساء القبائل والعائلات المتنفذة. ويمكن القول إن ملوك المملكة تبنوا نظام الإدارة اللامركزية، فتم تقسيم المملكة إلى ولايات، يدير كل ولاية منها والٍ من أهل المنطقة، وكل ولاية تنقسم بدورها إلى مقاطعات وكل مقاطعة تضم عدة قرى.

لقد وضع سونديا تاكيتا قواعد إدارة وحكم إمبراطورية مالي، حيث أخذ عن مملكة غانا تنظيمها للطبقات الاجتماعية ولامركزية الإدارة، فضلا عن أنه كان قد قنن نظام الطوائف الحرفية وأصبحت المهن وراثية واصبح لزاما على الابن أن يمارس حرفة أبيه.

بعد الانتصار في معركة كيرينا، قرر سونديانا الانتقال إلى العاصمة الجديدة، مدينة نياني الواقعة على نهر سنكراني، بدلا من داكا ديالا كيري ونارينا، وهو المكان القديم الذي كانت تقيم به قبائل كيتا، ولهذا القرار أسباب عدة منها: أن الإمبراطور الجديد لا يشعر بالاطمئنان بين بعض أفراد عشيرته هذا من جهة، وتميز موقع نياني الحصين طبيعيا لكون المدينة تقع في سهل محاذي لنهر سنكراني وتحيط به نصف دائرة من المرتفعات هذا من ناحية اخرى، فضلا عن السبب المهم وهو أن مدينة ماني أو نياني تتاخم مصدر الذهب وجوز الكولا وزيت النخيل التي كان التجار يقصدونها، وبذلك أصبحت هذه المدينة العاصمة السياسية والاقتصادية للبلاد .

الحالة الاقتصادية :

أما من الناحية الاقتصادية فتعد مالي دولة زراعية حيث بذل ساندياتا جهوداً كبيرة لحل مشاكل الأرض والتوسع في زراعة القطن والفول السوداني. وقد انتعشت التجارة فيها، بعد أن استقر الأمن في جميع أنحاء البلاد(٢٤)، ووطدت علاقاتها مع الدول المجاورة لها، ولاسيما مع مصر مارة بليبيا عن طريق فزان والمغرب، وإلى جانب هذا الازدهار، كثرة الأموال في خزانة الدولة بسبب انتظام الضرائب المفروضة على الصادرات والواردات، وضرائب الأعشار المفروضة على المواشي والمحاصيل وكذلك الغرامات والجمارك، ولكثرة هذه الأموال فيها تمكنت المملكة من تأسيس جيش قوي(٢٥). وقد سار حكام مالي على القاعدة نفسها التي سار عليها حكام غانا. وهي التحكم في الشبكة التجارية الواسعة الأرجاء في منطقة أفريقيا الغربية، وهو الهدف الذي راود إمبراطورية سنغاي وكانم و بورنو(٢٦).

أما التجارة عبر الصحراء فكان لها خصائص مميزة، فمن الناحية العملية، كان عبور الصحراء يعد إنجازا عظيما يشبه عبور المحيط، والتي أفضت إلى تنشيط المدن مثل ولاته وتمبكت وجاو وجني وغيرها إلى درجة عالية، وأدت كذلك إلى استقدام الثقافة الإسلامية. وأن ازدهار التجارة، للمسافات الطويلة، أدى إلى تقوية سلطة المملكة وتوفير الأمن(٢٧).

وامتازت مالي في ثرائها الذهبي، حيث عدت مالي أكبر منتج له في العالم آنذك، على الرغم من ارتكازها على الزراعة ولاسيما زراعة الأرز والفاصوليا والخضراوات الأخرى التي وفرت المواد الغذائية للسكان، وانتشرت كذلك زراعة القطن على نطاق واسع. ومارس سكان مالي، فضلا عن الزراعة، تربية الأبقار والأغنام والماعز، وكذلك مارسوا حرفة صيد الأسماك. والى جانب هذه الحرف هناك حرف أخرى منها الحدادة والإسكافية وصياغة الذهب، وصناعة النسيج والصباغة. أما بالنسبة للتجارة، فكان الذهب والملح والنحاس وجوز الكولا، المواد التي يتم التعامل بها تجاريا. ولأجل ضمان سير التجارة الخارجية تم تأسيس محطات للطرق يأوون إليها أثناء نقل البضائع من وإلى مراكز تجمع الإنتاج[٢٨].

ونتيجة للنشاط التجاري والازدهار الاقتصادي ذاعت سمعه جيش مالي وقوته، حيث تمكن من التوسع غربا حتى وصل إلى المحيط الأطلسي والتوسع باتجاه الشرق إلى بحيرة تشاد[٢٩]. ومن مظاهر ازدهار الحياة أيضا امتداد علاقات المملكة الدبلوماسية والتجارية إلى بلاد المغرب ومصر والبرتغال و استقبال مبعوثين في بلاط المملكة من تلك الدول[٣٠].

وكان من أبرز ملوك مملكة مالي، مانسا موسى الأول، وهو أحد أبناء اخوة سانديانا، (حكم من سنة ١٣٠٧ إلى سنة ١٣٣٢)، والمانسا سليمان وهو شقيق المانسا موسى الأول، ففي عهد الأول بلغت المملكة ذروة عظمتها، أما الثاني فقد حافظ على عظمة المملكة كاملة طيلة فترة حكمه.

إن فترة حكم المانسا موسى الذي يعد من أشهر سلاطين مالي، والذي ذاع صيته في العالم الإسلامي، وارتبط اسمه برحلة الحج الطويلة التي قام بها إلى مكة المكرمة عام ١٣٢٤، وكان طريق الى مكة، عبر الصحراء ماراً بولاته وتوات باتجاه القاهرة. وصحب معه آلافا من رعاياه وكمية كبيرة من الذهب، وزعها في طريقه على الفقراء أثناء إقامته

في القاهرة وفي الحجاز، بل وقيل بشيء من المبالغة، إنه لم يدع أميرا من المماليك في مصر، "ولا رب وظيفة سلطانية الا وصله بحمل من الذهب، كما افاض على الحجيج وأهل الحرم بمكة وتصدق بكثير من الأموال على الفقراء هناك"، وقد أكرمه الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر، وبعث اليه الهدايا الثمينة له ولحاشيته، وقيل إن ما طرح من ذهب في سوق القاهرة أدى لهبوط قيمته هبوطا شديدا واستمر الهبوط في الأسعار لمدة طويلة(٣١).

وتشير بعض الروايات أنه اشترى في مكة والقاهرة أراضٍ ومبانٍ لإيواء الحجاج السودانيين، وعند عودته إلى بلاده عن طريق غدامس، أحضر معه عددا من رجال العمارة، وكان أشهرهم أبا اسحق الطونجق، وبعض العلماء الذين بفضلهم تم تأسيس عدد من المساجد والمدارس لتحفيظ القرآن الكريم فضلا عن اقتنائه كميات كبيرة من الكتب الدينية سواء من الأراضي المقدسة أو من القاهرة، وفي عهده انشأ جامعة سانكوري في تمبكت(٣٢).

لقد كان لأداء فريضة الحج هذه نتائج مهمة منها شخصية، أكسبت شخصيته الهيبة والاحترام ما مكنه من الاستمرار في حكم بلاده. ومما زاد في إعلاء مكانته أيضاً تقربه من سلطان مصر والسلطان أبو الحسن علي المريني سلطان المغرب، لما بينهم من صلة مودة وتبادل للهدايا(٣٣).

وهكذا فقد أصبحت منطقة السودان الغربي عموما تشغل بال مصر والمغرب والبرتغال والمدن الإيطالية، محاولين تمتين علاقاتهم التجارية مع مملكة مالي(٣٤). وشهدت هذه المنطقة التأثيرات العربية الإسلامية المشرقية المسحة فمنحتها دفعة قوية في النواحي الحياتية المختلفة طيلة القرون اللاحقة.

وفي الحقيقة ذاع صيت دولة مالي بعد أداء المانسا موسى فريضة الحج، فقد اهتم المرينيون حكام المغرب الأقصى بمالي حيث كان التبادل التجاري قائما بينهما، وازداد هذا

الاهتمام بتبادل الهدايا والسفارات بين المملكتين، فضلا عن تطور علاقاتها مع مصر [٣٥]، فضلا عن دعم هذه الزيارة للروابط الإسلامية، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. ويعد المنسا موسى، راعيا للآداب حيث نشأ في ظله الأدب الزنجي الناطق بالعربية، والذي قدم أفضل ثماره في القرنين الرابع عشر والسادس عشر في مدينتي جني وتمبكت. وأصبحت مالي في عداد الممالك المتقدمة آنذاك من حيث حسن تنظيمها سياسيا واقتصاديا من بين الممالك الأفريقية الغربية، من حيث قوة الجيش واتساع المساحة، إضافة على استحواذها على أهم الموارد الاقتصادية وهي، الذهب والنحاس والملح، فضلا عن سيطرتها على طرق التجارة الرئيسية آنذاك [٣٦].

أما حال مملكة مالي في عهد مانسا سليمان، شقيق مانسا موسى الأول، والذي دام حكمه من عام ١٣٣٦ إلى عام ١٣٥٨. حيث عد هذا السلطان المنصف لأبناء شعبه والأب الذي ترفع إليه الشكاوي من كافة أنحاء المملكة، وكان الرعايا يخاطبونه بكل خضوع ويغطون ملابسهم بالتراب، وينادون الملك بعبارة "مفا مانسا" أي "مولاي، وأبي" وللملك جلستان في الأسبوع، واحدة داخل القصر والأخرى في الخلاء تحت شجرة، حيث يحضر الحكام والخطباء والفقهاء هذه الجلسات [٣٧]. وجلسة الخلاء هذه تعقد كل يوم جمعة بعد الصلاة. ويبدو أن مالي كانت قد حققت ذروة اتساعها في عهد موسى وسليمان فشملت كامل أفريقيا الغربية، وبهذا تكون قد أدمجت شعوبا وأعراقا مختلفة في وحدة سياسية واحدة.

التنظيمات السياسية والإدارية :

اعتمدت هذه الإمبراطورية الشاسعة على نظام الحكم اللامركزي، ويشكل المانسا رأس الهرم في الإدارة الحكومية، وهو مصدر السلطات، وحوله عدد من كبار الموظفين. وبفضل فتوحات سونديانا وخلفائه تشكلت الأرستقراطية العسكرية من المنتسبين إلى قواد سونديانا، وهؤلاء يشكلون عادة مجلسا حول الإمبراطور، وهو مجلس

مسموع الرأي من قبل الإمبراطور عند اتخاذ القرارات. وهناك وظيفة مهمة، وهي وظيفة الشاعر أو الحاجب ويعد الناطق باسم المانسا، وله وظيفة أخرى هي أنه كان يتولى تأديب الأمراء ويقوم بمهام رئيس التشريفات في البلاط. وللملك طائفة من الكتبة، وتوجد كذلك وظيفة نائب عام وهي بمثابة قائد القوات المسلحة، وأمين الخزانة ومسؤولوا الطوائف الحرفية. ويوجد عمال للبريد يغادرون العاصمة يومياً على متن الجياد، وهنا نلاحظ بروز التأثر الواضح بنظام البلاط الإسلامي ومظاهره.

أما إداريا فكانت المملكة تتألف من عدة مقاطعات وممالك تابعة لها، ويتولى كل مقاطعة والٍ، وفي القرن الرابع عشر اشتملت المملكة على اثنتي عشر مقاطعة وأهمها: التكرور وبامبوغو وزاغا وغاو ومقاطعة سنغانة (موريتانيا حاليا)، ومملكة غانا وميما ومقاطعة الماندي. وتتكون الواحدة أحيانا من عدة أقسام، وتعد المقاطعة، النموذج المصغر لحكم المركز. وبهذه الطريقة ضمنت استقرار مالي مما كفل للناس أمنهم على أنفسهم وأموالهم.

تقدر بعض المصادر عدد أفراد الجيش في هذه المملكة بحدود مائة ألف مقاتل، وهناك حاميات عسكرية ثابتة في بعض المدن الهامة مثل ولاته وغاو وتمبكت ونياني وغيرها. وكان عماد الجيش الفرسان، وسلاحهم القوس والرمح والسيف، وهم صفوة الجيش ويخضعون لأوامر الملك مباشرة، يليهم المشاة، ويتكون سلاحها من الرماح والسهام، وكانت كل مقاطعة تقدم عددا من الرجال، وهو النظام المعمول به في هذه المملكة.

وعلى الرغم من الرخاء الاقتصادي الذي عاشته هذه الإمبراطورية واتساع رقعتها وعلاقاتها الدبلوماسية الناشطة، في ظل عدد من الملوك الأقوياء، إلا أن هذا لم يمنع مرورها بمرحلة الضعف التي يمكن تحديدها من بداية القرن الخامس عشر الميلادي، حين فقدت جميع أقاليمها الشرقية بما في ذلك تمبكت وجني. والسبب الرئيسي لهذا التدهور هو

الخلاف الناشب بين ورثة الحكم، فضلا عن سيطرة قبائل الطوارق على أهم المراكز التجارية للبلاد وهي تمبكت وجني، وسيطرة القبائل المجاورة على بعض مناجم النحاس، وهجوم قبائل الموسي من الجنوب وقبائل الولوف من الغرب وقبائل سنغاي من الشرق إضافة إلى سوء أداء الجهاز الإداري وانتشار الرشوة في البلاد.

وفي ظل هذه الأوضاع المضطربة في أنحاء الإمبراطورية وحالة الضعف التي تعاني منها، بدأ التدخل البرتغالي في الحياة السياسية في الغرب الأفريقي يهدد أمن واستقرار هذه الدول. فقد أوفد ملوك البرتغال في الأعوام ١٤٨١ و١٤٩٥ بعثات دبلوماسية إلى ملوك غرب أفريقيا. فوصلت سفارة إلى كل من ملك الفوتا وتمبكت وأخرى إلى مانسا مالي. وكما أرسلوا سفارتين أخريين إلى مالي وصلتها الأولى من غامبيا والثانية من حصن المينا.

ومما يؤكد الأهمية التي كان يوليها ملك البرتغال لهذه المملكة في عهد المانسا محمود الثالث الذي ذكر في رسالة بعث بها إلى ملك البرتغال، ان سلطانه لا مثيل له سوى قوة أربعة سلاطين هم : سلطان اليمن وسلطان بغداد وسلطان القاهرة وسلطان التكرور.

واستقبل المانسا محمود في عام ١٥٣٤ بعثة برتغالية للتفاوض حول المشاكل المرتبطة بالتجارة المارة بنهر غامبيا، لكن البرتغاليين بدأوا يتدخلون منذ أواخر القرن الخامس عشر في المنازعات الداخلية للبلدان الساحلية، متتبعين سياسة محاباة صغار الرؤساء في المناطق الساحلية بواسطة التجار، لإغرائهم وحملهم على التحرر من سلطات المانسا المالي، هذا ما حصل لمملكة سالوم الساحلية، والتي كانت تمثل المنفذ الوحيد على العالم الخارجي [٣٨]، مستهدفين إضعاف هذه الدولة سياسياً واقتصادياً.

وقد لقيت هذه العوامل قبولا من لدن حكام الأقاليم وشجعتهم على الاستقلال حتى سقطت هذه المملكة نهائيا.

تمكنت إحدى الممالك الناشئة وهي مملكة سنغاي في النصف الثاني من القرن السادس عشر من ضم المقاطعات الشرقية التي كانت تابعة لمالي الواحدة بعد الأخرى مرحلياً حتى سيطرت على جميع أراضيها.

ولتعميم الفائدة نقدم قائمة باسرة كيتا الحاكمة في مالي:

- ناري فامغان	١٢٠٠-١٢١٨
- دنجارام	١٢١٨-١٢٢٨
- سوندياتا (ماري جاطا)	١٢٢٨-١٢٥٥
- ولى الأول	١٢٥٥-١٢٧٠
- ولى الثاني	١٢٧٠-١٢٧٤
- خليفة	١٢٧٤-١٢٧٥
- أبو بكر	١٢٧٥-١٢٨٥
- سيكرة	١٢٨٥-١٣٠٠
- قو	١٣٠٠-١٣٠٥
- موسى الأول	١٣٠٥-١٣٣٧
- مغان الأول	١٣٣٧-١٣٤١
- سليمان	١٣٤١-١٣٦٠
- كاسا	١٣٦٠-
- ماري جاطا الثاني	١٣٦٠-١٣٧٤
- موسى الثاني	١٣٧٤-١٣٨٧
- مغان الثاني	١٣٨٧-١٣٨٨
- صندكي	١٣٨٨-١٣٩٠
- مغان الثالث	١٣٩٠- ؟

obeikandl.com

٣- مملكة سنغاي :

تأسست هذه الدولة في القرن السابع الميلادي واستمرت بالتوسع التدريجي، ومنذ القرن الحادي عشر اتخذت هذه المملكة من مدينة غاو (*Gao*) عاصمة لها بعد ان كانت مدينة كوكيا الواقعة على نهر النيجر الأدنى عاصمتها، هذا إضافة إلى العاصمة العلمية، ذات المركز الثقافي، تمبكت، والتي برز دورها في نشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان. ويسجل لنا التاريخ بأن أسرة ضياء كانت أبرز حكام سنغاي، وتنحدر هذه الأسرة من مدينة طرابلس الغرب الليبية، والتي استمرت في حكم البلاد حتى عام ١٣٣٥ [٣٩]. وجاءت بعدها إلى الحكم أسرة سني التي حكمت من عام ١٣٣٥ إلى عام ١٤٩٣، وهي الأخرى أسرة ليبية وفرع من أسرة ضياء، بعد ان استقلت عن مملكة مالي عام ١٣٣٥ [٤٠]. إن هذه الشواهد تؤكد لنا ارتقاء العناصر العربية التي استقرت في بلاد السودان إلى مناصب قيادية رفيعة مما سهل إمكانية نقل المظاهر السياسية العربية الإسلامية إلى تلك البلدان.

وقاد عملية الانفصال عن مملكة مالي علي كلن (أو قولون) عام ١٣٣٥، الذي كان يعيش أساسا في مملكة مالي رهينة منذ عام ١٣٢٥، جريا على سياسة المملكة من حجز أولاد المسؤولين عن إدارة الإقليم.

لقد حكم سنغاي من أسرة سني ثمانية عشر أميراً، وتوسعت الدولة وبلغت ذروتها في عهد سني علي بر أو المسمى سني علي الكبير الذي حكم البلاد من عام ١٤٦٤-١٤٩٢. وتوسعت أكثر حين سيطر على عرش المملكة الاسكيا الحاج محمد الكبير الذي أنهى حكم آل سني بثورة قام بها بعد وفاة سني علي عام ١٤٩٢ [٤١].

لقد تخلى سني علي بر عن سياسة النهب التي انتهجها أسلافه عند فتحهم الأقاليم وضمها إلى نفوذهم، ولتحقيق سياسته الجديدة هذه فقد كون جيشاً مدرباً على الحروب، ومنظماً تقوده قيادة مقتدرة، تتكون من المشاة، مع فرقة من الفرسان، واشتهر سني علي بأنه المحارب الذي لا يقهر.

واهتم سني علي بر كأسلافه بالإقليم الغربي الذي كان يتمتع بثروة كبيرة، وتمكن من إقامة إمبراطورية واسعة محورها نهر النيجر وامتدادها من دندي حتى مسينا. ونظمها على طريقة مشابهة لإمبراطورية الماندنغ، وأصبحت هذه الدولة، ذات النظام الأبوي التقليدي، دولة مركزية تشرف على جميع الأقاليم النيجيرية. وبعد وفاته في عام ١٤٩٢، اندلعت الحرب بسبب رفض خليفته سني باري اعتناق الإسلام، حيث ثارت عليه مجموعة إسلامية تحت قيادة الهومبوريلوا محمد وأخيه عمر كوميدياغو، وهزماه في أنفاو بالقرب من غاو. واستولى على السلطة محمد توري أوسيل[٤٢]، وأطلق على نفسه لقب أسكيا، وبهذا يكون قد أسس أسرة حاكمة مسلمة. وكان محمد هذا من أصل سوننكي المنحدرة من التكرور، وتصفه الروايات على انه كان مسلما ورعا ورجلا معتدلا وسياسيا بعيد النظر، ويوصف انتصاره بأنه انتصار للإسلام. وفي سني حكمه الأولى أراد أن يضفي الشرعية على حكمه فقصد الديار المقدسة في عام ١٤٩٦-١٤٩٧، وأصطحب معه ٨٠٠ فارسا وعددا من علماء الدين، وحمل معه مبلغا كبيرا من المال لتغطية نفقاته. ونزل القاهرة وزار الشيخ السيوطي، شيخ الأزهر، وفي مكة حصل من شريفها على لقب خليفة السودان، وأنشأ منصب شيخ الإسلام بعد عودته إلى بلاده وأقام في مدينة تمبكت[٤٣].

كان الاسكيا محمد قد واصل ما أنجزه سني علي بر في توسيع مملكته من جميع الاتجاهات، فأخضع مسينا وديارا، وفرض سلطانه على الصحراء حتى مناجم تكازة وفتح أغاديس ومدن الحوصا، وبفضل هذه التوسعات قويت إمبراطوريته التي نظمها وفقا للتقاليد الموروثة عن سني علي، ونصب القضاة في كل المدن الإسلامية، وعمل على تنظيم البلاط والمجلس الإمبراطوري، ووزع المناصب على كبار موظفيه .

لقد أولى اهتمامه بجميع أنشطة الدولة، فشجع التجارة، ووضع مراقبين لأدوات القياس في السوق، ودعم القضاة على السرعة والنظام فيما يتعلق بالمعاملات،

وشجع كذلك الزراعة، وأنشأ العديد من القرى الزراعية، وعمل على تخفيض الضرائب على المحاصيل الزراعية لتشجيع الفلاحين على الزراعة، كما شجع التعليم فزاد الإقبال عليه. بما قدمه من عطايا ومعاشات واحترامه لعلماء الدين. وكان صديقا للأدباء والعلماء، الذين كرمهم وأغدق عليهم الهدايا وأحاطهم بالتقدير والاحترام. وفي عهده بلغت المملكة ذروتها، وتم تحقيق نهضة اقتصادية وفكرية كبيرة، فانتعشت الزراعة، ونشطت المدن التجارية(٤٤). وسار خلفاؤه على سيرته في الحفاظ على تقدم البلاد وازدهارها.

إن ابرز وأخطر مشكلة ظهرت في عهد الاسكيا محمد الرابع (١٥٨٣-١٥٨٦) هي مشكلة تكازة، حيث طالب سلطان المغرب مولاي أحمد المنصور بمناجم الذهب، وحينما لم يتوصلا إلى حل يرضي سلطان المغرب، قاد حملة عسكرية احتلت المناجم. وبعد وفاته تم تنصيب أخيه محمد الخامس، ملكا، لكن حربا أهلية اندلعت بين الاخوة بسبب الخلافات على السلطة، وبذلك انقسمت المملكة على نفسها، مما دفع العديد من الأمراء إلى الانضمام إلى جانب القوات المغربية الزاحفة عليهم.

وعموما اشتهر ملوك سنغاي بحرصهم على نشر الإسلام بين اتباعهم فارتبطت بلادهم بعلاقات مع المغرب ومصر و الحجاز(٤٥).

سقطت مملكة سنغاي في عام ١٥٩١ حين غزاها الجيش المغربي بقيادة السلطان احمد الذهبي(٤٦)، وبذلك خضعت هذه البلاد إلى الحاكم المغربي حتى عام ١٦١٨ حيث لم يتمكن المغاربة من الاحتفاظ بقوات عسكرية تكفي لإقرار السلم في أراضي سنغاي، فضعفت سلطتهم وانهارت في هذه البلاد نهائياً بحلول عام ١٦٢٠.

التنظيمات الإدارية والاقتصادية لمملكة سنغاي :

تميزت مملكة سنغاي بالتركيب الدقيق للسلطة والمركزية المنتظمة والملكية المطلقة، وبهذا اختلفت في النظام السياسي عن النظام الذي اتبعته كل من مملكتي غانا ومالي. فكان

الإمبراطور على رأس الهرم الإداري لإمبراطوريته، الذي كان يقيم في غاو، وتقضي التقاليد القديمة السنغية باعتبار الملك أباً وذا سلطة شبه مقدسة، وهو يمثل الخصوبة والرخـــاء، ولا يقترب أحد منه إلا ساجداً. ولكن منذ القرن الحادي عشر أصبح الدين الإســـلامي هـــو السلطة الحاكمة في البلاد، وكان الملوك يحكمون وفق تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

لقد جرت العادة في يوم تتويج الملك على أن يقدم له خاتم وسيف وقرآن إضافة إلى شارات تقليدية موروثة وهي الطبل والنار المقدسة. وكان للإمبراطورية جيش محترف ومتدرب تدريبا جيداً بإمرة قائد أعلى، وهو موزع بين الحرس الإمبراطـــوري وجـــيش حكومات المقاطعات، وتدار الإمبراطورية عموما بواسطة مجموعة من كبـــار المـــوظفين موزعين حسب اختصاصاتهم فمنهم المسؤول عن الشؤون الوظيفية أو الإدارية أو شـــؤون الأراضي.

اما الحياة الاقتصادية فكانت منظمة تنظيما دقيقا، فقد كان الملك المالك لجميـــع الأراضي من الناحية القانونيـــة، ولكنها من الناحية العملية كانت تدار من قبل زعمـــاء القرى، ويعمـــل بها الاقنان، حيث كان الاسكيا يمد المزارعين بالبذور، وكان لكل مدينة محصلها المالي، الذي يجبي الأموال والضرائب، وهي تشكل الدخل الوفير للاسكيا إضـــافة إلى ما تدفعه الدول التابعة من جزية. وكان الذهب والملح هو النقد المتداول بين النـــاس، ولتلافي الغش كان للاسكيا وحدات قياسية للمكاييل والموازين، وكان يتم كري مجـــرى نهر النيجر لتسهيل الملاحة. وأصبحت المدن الكبيرة والمزدحمة بالســـكان هـــي المراكـــز التجارية المزدهرة في البلاد. وأصبحت هذه المدن بشكل طبيعي مراكز مشهورة للدراسات الدينية ومن بينها جني وتمبكت ووالاته وغاو، وكانت المؤسســـات العلميـــة والمراكـــز الدراسية ترعى من قبل الأمراء وجمهور المواطنين، وتشير الروايات إلى أن عدد المدارس في تمبكت قد ارتفع إلى ١٨٠ مدرسة. وحظي المدرسون بعناية الاسكيا ورعايتـــه، حيـــث كانت تصدر مراسيم ملكية حينما تقدم لهم الاعطيات والامتيازات، ولم يقتصـــر هـــذا

التكريم على المدرسين فقط، بل شمل القضاة أيضا، وخير معبر عن ذلك ما كتبه محمود كعت قائلا: " في ذلك الزمان لم يكن لتمبكت مثيل بين مدن بلاد السودان بمتانة مؤسساتها وحريتها السياسية ونقاء تقاليدها، والاطمئنان على النفس والمال، والرحمة والشفقة على الفقراء وعابري السبيل، والحدب على الطلاب ورجال العلم والمساعدات التي تقدم لهؤلاء"(٤٧).

لقد كانت بحق مدينة تمبكت مركز إشعاع سياسي واقتصادي ومركزاً للعلوم والمعارف الإسلامية.

مملكة كانم – بورنو:

ظهرت هذه المملكة في الأراضي المحيطة ببحيرة تشاد ونهر الكانوري، والتي امتد نفوذها في أزهى فتراتها من طرابلس في ليبيا إلى شمالي الكاميرون الحالية ومن النيجر إلى النيل، والتي تقع عليها اليوم جمهورية تشاد وقسما من شمال نيجيريا، ويتكون شعبها من قبائل البولالا، قبل دخولهم الإسلام، وغالبية سكانها كانوا يعيشون على شكل عشائر ومجموعات عرقية مستقلة(٤٨).

وصل إلى حكم هذه البلاد في منتصف القرن الحادي عشر أسرة أطلق عليهم اسم السيفيين، نسبة إلى سيف بن ذي يزن اليمني، ومؤسس هذه الأسرة هو جمادي (١٠٧٥- ١٠٨٠)(٤٩).

انتشر الإسلام في هذه المملكة على الرغم من أن بعض المصادر تؤكد على انتشاره في خلال النصف الثاني من القرن التاسع، وبالذات في عهد ملكها دونمه بن أوم أو كما تسميه بعض المصادر أومي(١٠٨٥-١٠٩٥)، وهو أول حاكم اعتنق الإسلام، وخلفه في الحكم ابنه دوناما الذي زار مكة حاجا ثلاث مرات في خلال فترة حكمه (١٠٩٧ -١١٥٠م). وأنشأ في القاهرة داراً خصصت لإقامة الحجاج والطلاب القادمين من كانم، وكما أنشأ مدرسة ألقيت فيها المحاضرات على المذهب المالكي(٥٠).

بدأ ملوك هذه المملكة من بعد دوناما بالتوسع على حساب جيرانهم فاستفاد الملك سيما (١١٩٥-١٢٢٠ م) من علاقاته مع قبائل التوبو، مستغلا شجاعتهم فاحتلوا باسمه طرق الشمال التجارية ووصل نفوذه إلى فزان واحتلها. ومن بعده تمكن دوناما الثاني(١٢٢١ -١٢٥٩ م) من عقد معاهدة مع الحفصيين في تونس عام ١٢٥٧م. وامتد نفوذه باتجاه الغرب حتى وصل إلى النيجر مستولياً على بلاد الحوصا[٥١]، وتعد هذه افضل فترات حكم المملكة من حيث القوة والتوسع.

لقد عاشت هذه المملكة بفترات اضطراب طويلة نتيجة للحروب التي قامت بين حكامها والقبائل المناوئة لها إلى أن انتعشت هذه المملكة مرة أخرى ، في عهد علي بن دوناما(١٤٧٢ -١٥٠٤ م) وعهد ابنه ادريس (١٥٠٤ -١٥٢٦) وفي عهد ادريس كاتا غارمابي والمسمى أيضاً إدريس علومه(١٥٧١-١٦٠٣ م) [٥٢].

كانت كانم مملكة تحتفظ بعلاقات تجارية مع مصر، كشقيقاتها مالي وغانا، ويمكننا هنا القول بأن أقطار أفريقيا الغربية وبلاد النيل كانوا دائما على اتصال فيما بينهم، بدليل أن بعض الطرق القديمة لا تزال مستعملة إلى وقتنا الحالي .

لقد تمتعت مملكة كانم - بورنو في فترات ازدهارها بتنظيم سياسي وإداري دقيق، وتميز نظامها باللامركزية وكان على رأسها سلطان مقدس. وفيها مجلس دولة يتألف من اثنى عشر أميراً منهم حكام المقاطعات ومنهم الموظفون الكبار في الدولة، هذا فضلا عن وجود مجلس خاص يدير الأعمال اليومية.

أما الواردات المالية فتكونت من الضرائب العينية والجزية التي كانت تدفعها الحكومات التابعة لها، ومن تجارة الرقيق. ولا يغيب عن البال أهمية التجارة عبر الصحراء ودورها في نمو دولة كانم وتطورها[٥٣].

كان القضاء على الأغلب من اختصاص الملك، ولكن بعد أن اعتنق الملوك الدين الإسلامي، حرصوا على إقامة القضاء على أسس الشريعة الإسلامية، حيث كان القائمون على تطبيقها القضاة المسلمون[٥٤].

وكان لهذه المملكة جيشا كبيرا مدربا تدريبا حديثا آنذاك ويستخدم الأسلحة النارية، ويتكون من الفرسان والمشاة وحراس القصر، فضلا عما كان يرسله حكام الأقاليم إلى العاصمة من مقاتلين ويطلق عليهم اسم الوحدات الريفية(٥٥).

أما بالنسبة لبورنو، فتشير المصادر إلى أنه منذ القرن الثاني عشر بدأ بعض سكان كانم يهاجرون نحو الغرب للاستقرار في بورنو، التي تقع في غرب بحيرة تشاد، ومن أقدم المهاجرين الذين استقروا في هذه المنطقة هم التوماغرا والتورا والقاي والمنغالما دقو، حيث التقت الجماعات القادمة من كانم في غرب هذه البحيرة بشعوب حضرية مختلفة تتحدث باللغات التشادية.

ومن الصعب تحديد طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين كانم وبورنو لكن ابن سعيد المغربي يدلنا على وجود مملكة تقع غرب بحيرة تشاد، لكنه لا يورد لنا غير أسم عاصمتها (جاجه)، وموقعها الجغرافي يجعلنا نعتقد بأن ذلك يتعلق ببورنو، وهذا الاعتقاد لا يمنع من وجود احتمالات أخرى بالنسبة لهذه المدينة(٥٦)، ومن المحتمل أن تكون بورنو مملكة مستقلة قائمة قبل القرن الثالث عشر الميلادي، ويشير ابن خلدون إلى أن سلاطين مصر في مراسلاتهم عام ١٢٦٨ كانوا يخاطبون حكام هذه المنطقة باسم "سلطان كانم وسيد بورنو "(٥٧).

ومع غياب الدقة التاريخية يمكن التوفيق بين المعلومات المتضاربة إذا سلمنا بأن كانم وبورنو كانتا أول الأمر مملكتين مختلفتين، تحت قيادة أسرة واحدة هي أسرة السيفيين في القرن الثالث عشر، في حين يؤكد العمري، أن سلاطين المماليك بمصر كانوا يتبادلون الرسائل مع كل من ملك كانم وملك بورنو عند منتصف القرن الرابع عشر، ولكن يمكننا أن نستنتج أن بورنو قد احتفظت بنوع من الاستقلال على الرغم من سيادة ملوك الكانم عليها، ولكن حينما كان سلاطين كانم يضعفون تشتد سلطة الحكام المحليين ويصبحون أكثر قدرة على المناورة. لكن هذه الأوضاع قد تغيرت في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي

حينما تعرض السيفيون إلى غارات البلاليين* ، فاضطروا إلى ترك كانم والاستقرار في بورنو نهائيا.

ومن الأرجح هو أن ضعف مملكة كانم كان سببا مهما في تدخل البلاليين في شؤونها، وعلى أثر نشوب النزاع العائلي بين داوود بن إبراهيم نيقالي(حوالي ١٣٦٦-١٣٧٦) وأبناء أخيه، حيث تمكن البلاليون من تحقيق بعض الانتصارات وقتل عدد من ملوك السيفيين. إلا انه في عهد الملك بير بن إدريس (١٣٨٩-١٤٢١)، كان قد قضى نهائيا على ما كان يلوح به البلاليون الأعداء من تهديدات لمملكته، و لم يهزم هؤلاء بشكل حاسم إلا في النصف الثاني من القرن السادس عشر على يد الملك إدريس ألوما[٥٨]، الذي بلغت بورنو في عهده أوج عظمتها، حيث أقام دولته على أسس حربية، وذلك بإدخاله الإصلاحات المهمة على جيشه بحيث أصبح قوة كبيرة في السودان الغربي، واستقدم مدربين من حملة البنادق الأتراك لتدريب حرسه الخاص على استعمال الأسلحة النارية، وأحدث نظاما جديدا للنقل بالجيش حيث حل الإبل والجياد محل البغال والثيران، وطور النقل النهري، بإحلال القوارب الكبيرة محل الأشجار المجوفة، وبذلك أصبح جيش بورنو يفوق أي جيش في المنطقة من حيث فنون التدريب وسرعة حركة النقل واستخدام السلاح الناري[٥٩].

كان ادريس متمسكا بأحكام الشريعة الإسلامية، وملتزما بأحكام القرآن، كما أقام عددا من المساجد المبنية من الطين والطوب الأحمر بدلا من الخوص، وفي عهده حل القضاء الإسلامي محل العرف الذي كان يقضي به شيوخ القبائل[٦٠].

* والبلاليون قوم رعاة يعيشون في منطقة بحيرة فتري، قبل قيامهم بالغارات على كانم، وربما هجرة هؤلاء إلى كانم لها علاقة بهجرة بعض القبائل العربية إلى الغرب على أثر تفكك مملكة النوبة في بداية القرن الرابع عشر.

ومما زاد من أهمية حكام البورنو وهيبتهم تميزهم عن حكام السودان الغربي الآخرين وادعاؤهم بالخلافة لأنفسهم في داخل المنطقة، مع استمرار اعترافهم بالخلافة العثمانية، مستندين على ذلك في نسبهم إلى سلالة بني أمية.

لقد كانت مملكة كانم-بورنو من الممالك الإسلامية التي ظلت قائمة حتى نهاية القرن التاسع عشر حينما احتلها الفرنسيون، وقضوا على استقلالها.

ولزيادة الفائدة ندرج قائمة بأسماء الأسرة السيفية الحاكمة في كانم :

- أوم بن جبيل (أو هيوم بن جيل)	١٠٨٦-١٠٩٧
- دونمه بن أوم	١٠٩٨-١١٥١
- دالابربي (أو بيري بن دومنه)	١١٥١-١١٧٧
- دالابكر (أو عبد الله بكر بن بيري)	١١٧٧-١١٩٤
- سالما (أو عبد الجليل بن بكر)	١١٩٤-١٢٢١
- أحمد دومنه (أو دومنه بن دابالا بن سالما)	١٢٢١-١٢٥٩
- كادي (أو عبد القديم) بن متالا (متالا اسم أمه)	١٢٥٩-١٢٧٨
- عثمان (بيري) بن زينب	١٢٧٩-١٣٠٠
- الحاج أبراهيم نيجال بن كادي	١٣٠٠-١٣٢١
- عبد الله بن كادي	١٣٢١-١٣٤٢
- سالما (تسليم) بن حوا (أو إبن عبد الله)	١٣٤٢-١٣٤٨
- كورجانا (أوكور) الصغير	١٣٤٨-١٣٤٩
- كور الكبير	١٣٤٩-١٣٥٠
- كور محمد (أو محمد بن عبد الله)	١٣٥٠-١٣٥٣
- إدريس بن حفصة بنت نيجال بن إبراهيم (أمه حفصة بنت نيجال وأبوه إبراهيم)	١٣٥٣-١٣٧٦

obeikandi.com

- داوود بن فاطمة بنت نيجال بن إبراهيم (أمه فاطمة بنت نيجال وأبوه إبراهيم) ١٣٧٦-١٣٨٦
- عثمان بن داوود ١٣٨٦
- عثمان بن إدريس ١٣٨٦
- أبو بكر (لياتو) بن داوود ١٣٨٦

كما ندرج هنا أيضا قائمة بأسماء الأسرة الحاكمة بعد انتقالها إلى بورنو :

- عمر بن إدريس ١٣٨٧/٦-١٣٩١
- سعيد محمد مازا أوماجا ١٣٩١
- كادي أفونو بن إدريس ١٣٩١-١٣٩٢
- عثمان (بيري) بن إدريس ١٣٩٢-١٤٢٥
- عثمان كالينواما بن داوود ١٤٢٥
- دونمه بن عمر ١٤٢٥-١٤٢٧
- عبد الله أوجا بن عمر ١٤٢٧-١٤٣٦
- إبراهيم بن عثمان ١٤٣٦-١٤٤٣
- كادي بن عثمان ١٤٤٣-١٤٤٤
- دونمه بن بيري (أو دونمه بن عثمان) ١٤٤٤-١٤٤٨
- محمد بن متالا (متالا إسم أمه) ١٤٤٨-١٤٥٠
- أوم بن عائشة بنت عثمان ١٤٥٠-١٤٥٢
- محمد بن كادي ١٤٥٢-١٤٥٥
- حاجي بن إمالا ١٤٥٥-١٤٦١
- عثمان بن كادي ١٤٦١-١٤٦٦
- عمر بن عبد الله أوجا ١٤٦٦-١٤٦٧

obeikandl.com

- محمد بن محمد كادي	١٤٦٧-١٤٧٢
- علي حاجي بن دونمه بن زينب (أبوه دونمه وأمه زينب)	١٤٧٢-١٥٠٣
- إدريس كاتاجار مابي بن علي بن عائشة	١٥٠٣-١٥٢٦
- محمد بن إدريس	١٥٢٦-١٥٤٥
- علي بن إدريس	١٥٤٥-١٥٤٦
- دونمه محمد بن فانامي بن محمد (لإانامي اسم أمه، محمد اسم أبيه)	١٥٤٦-١٥٥٥
- عبد الله بن دونمه	١٥٥٥-١٥٦٣
- وصاية الماجيرا عائشة علي ابنها إدريس ألوما	١٥٦٣-١٥٧٠
- إدريس بن علي ألوما أو إدريس عائشة ألوما	١٥٧٠-١٦٠٣
- محمد بن إدريس	١٦٠٣-١٦١٨
- إبراهيم بن إدريس	١٦١٨-١٦٢٥
- الحاج عمر بن إدريس	١٦٢٥-١٦٤٤
- الحاج علي طاير بن الحاج عمر	١٦٤٤-١٦٨٠
- إدريس بن علي	١٦٨٠-١٦٩٩
- دونمه بن علي	١٦٩٩-١٧١٧
- الحاج حمدون بن دونمه	١٧١٧-١٧٣١
- محمد بن الحاج حمدون	١٧٣١-١٧٤٧
- دونمه جانا	١٧٤٧-١٧٥٠
- علي بن الحاج حمدون	١٧٥٠-١٧٩١
- أحمد بن علي	١٧٩١-١٨٠٨

obeikandl.com

مظاهر التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي:

إن أهم مظاهر التأثير العربي الإسلامي، ظهور مراكز عدة للثقافة العربية الإسلامية، وكان للهجرات العربية في العصور القديمة وكذلك التي حدثت بعد البعثة النبويّة وانتشار الإسلام، اما لأسباب تجارية بحتة أو هروبا من السلطة، كما حصل في عهد الدولتين الأموية والعباسية. كما انتشرت اللغة العربية في هذه المناطق بفضل انتشار الإسلام فيها، وظهر عدد من الفقهاء وعلماء الدين وأئمة المساجد، درّسوا في المدارس القرآنية وفي الخلوات وفي الجوامع، ودرّست اللغة العربية في جميع مراحل التعليم، هذا فضلا عن انتقال فن العمارة الإسلامية، من فنون البناء والنحت والنقش على الأبنية، و لم يقتصر التأثير العربي الإسلامي في هذه النواحي، بل تعدّاه إلى شيوع التأثيرات الاجتماعية فانتقلت العادات والتقاليد والفنون الشعبية، ونظام الأسرة، وحتى الأزياء.

ولا بد لنا من التعرض إلى أبرز مراكز الإشعاع الفكري والثقافي العربي الإسلامي، في السودان الغربي، وهي:

أولاً : تمبكت، التي كانت تعتمد كلية على تجارة الشمال، تأسست هذه المدينة عام ١٠٠٠م، كانت محلة صغيرة استقر فيها بعض التجار من جني لمتابعة أعمالهم التجارية، وسرعان ما برزت أهميتها بسبب موقعها الجغرافي، عند منحنى نهر النيجر، لذلك أصبح موقعها يتحكم في التجارة الصحراوية والنهرية، وعند مهاجمة المرابطين لغانا، أضحت تمبكت أكثر أمناً كمركز تجاري جديد في بلاد السودان الغربي كله.

وبسبب الازدهار التجاري والاستقرار والأمن تحولت شيئاً فشيئاً إلى مركز ثقافي، فازداد فيها طلاب العلم، وكثرت مساجدها، وكان أبرزها مسجد دينكر بير ومسجد سانكوري، الذي تم بناءه عام ١٣٢٥ في عهد منسا موسى، وبلغت هذه المدينة ذروة ازدهارها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وتمتعت بمكانة مرموقة ذكرها السعدي-ربما بشئ من المبالغة- قائلا:" ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط

لغير الرحمن مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين وملتقى الفلك والسيار فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صار مسلكا للسالكين في ذهابهم ورجوعهم"[٦١]. ووصف القاضي محمود كعت مكانتها بأنها: " لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد كل مروة وحرية وتعففا وصيانة وحفظ العرض ورأفة بالمساكين والغرباء وتلطفا بطلبة العلم وإعانتهم"[٦٢].

وحين زارها الحسن الوزان في القرن الخامس عشر وصف الحياة فيها على أنها مدينة عظيمة الشأن وفيها عدد كبير من الدكاكين المملوءة بالمنسوجات، وفي سوقها التقت البضائع القادمة من المغرب ومصر ومن أوروبا الجنوبية. وأنفس البضائع في أسواقها كانت الكتب والملح والخيول، فالكتب يتم استيرادها من مصر والمغرب، وكان الإقبال على اقتنائها يدل على المستوى الثقافي الرفيع الذي تمتعت به هذه المدينة.

وكانت اللغة العربية لغة الثقافة والإدارة وهي اللغة الشائعة في التعامل التجاري إلى جانب لغة سنغاي. وعدت تمبكت مركز حركة ثقافية إسلامية، لاسيما وأن علماؤها وطلابها كانوا يحظون باحترام كبير من لدن الموسرين فيها الذين كانوا ينفقون عليهم، وعلى المدارس التي تدرس فيها القرآن الكريم، وبرز فيها شخصيات علمية عدة، منهم أحمد بابا، مؤلف كتاب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، والسعدي، صاحب كتاب "تاريخ السودان"، والقاضي محمود كعت، صاحب كتاب "تاريخ الفتاش"، وهذه الكتب من المصادر المهمة والفريدة في تاريخ المنطقة، واستمرت هذه المدينة في تراثها العلمي والفكري حتى قدوم الفرنسيين إليها أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

ثانياً : مدينة جني وتسمى" لؤلؤة النيجر"[٦٣]، وارتبط ازدهارها بازدهار تمبكت، فمنذ منتصف القرن الثاني عشر أصبحت جني ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية في السودان الغربي كله بعد تمبكت وغاو. واحتلت المرتبة الثقافية الثانية بعد تمبكت، وذلك لوجود العدد الكبير فيها من العلماء وطلاب العلم. ومن أشهر علمائها

موري حاجا، الذي مارس التعليم بمساجدها في القرن الخامس عشر، ومن أبرز قضاتها محمد سانو والعباس كبّي ومحمد بارها يورو وأحمد طورفو[٦٤].

ثالثا : غاو وهي المركز الثقافي الثالث، وأصبحت عاصمة لمملكة سنغاي منذ عهد أسرة ضياء الأولى، وبلغت ذروة ازدهارها في عهد السيفيين، ووصفت بالمدينة العظيمة، وفيها قصور الملك ورؤساء دولته. وبلغ عدد دورها عام ١٥٨٥ حوالي سبعة آلاف داراً، في حين بلغ عدد سكانها حوالي ٧٥ ألف نسمة، وتميزت هذه المدينة بتنوع سكانها بين التجار ورجال الدولة أكثر مما كان يتواجد فيها من طلاب العلم والأساتذة.

obeikandl.com

هوامش الفصل الأول :

١- دائرة المعارف الاسلامية ،ج٥ ، ليد، ١٩٨٤، ص٥١٨.

٢- عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الاوروبي في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩، ص١١.

٣- انظر: ابن حوقل، كتاب صورة الارض، دار صادر(عن طبعة ليدن)،١٩٣٩، ط٢، ج١-٢، مكتبة الحياة،بيروت، ١٩٧٩،ص٩٦.

٤- لمزيد من المعلومات انظر: أمطير سعد غيث، التأثير العربي الاسلامي في السودان الغربي، طرابلس، دار الرواد، ١٩٩٦،ص٢٨-٣١.

٥- دافيدسون، أفريقيا تحت أضواء جديدة، بيروت،١٩٦٣،ص١٨٣.

٦- البكري، المسالك والممالك، تحقيق دي سلان، مطبعة المثنى، بغداد،١٨٥٧، ص٢٣. أنظر كذلك ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧١، ج٦، ص١٩٩.

٧- الهادي المبروك الدالي، الاسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب أفريقيا، دار صنين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦، ص٢٤.

٨- المصدر نفسه، ص٢٤.

٩- زبادية، الحضارة..،ص٢٤.

١٠- ابن حوقل، ص١٠١.

١١- المصدر نفسه، ص١٠١.

١٢- البكري، ص٢٤.

١٣- المصدر نفسه، ص٢٤؛ ويذكر زبادية ، انه في عام ١٩٤٩ تم تحديد موقع كومبي صالح على بعد حوالي ١٠٥ كم الى الشمال من مدينة بماكو الحالية.عبد القادر زبادية، سنغاي في عهد الاسقيين١٤٩٣-١٥٩١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،(د.ت)،ص١٨.

١٤- القاضي محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار الجيوش وأكابر الناس، باريس، ١٩١٣، ص٤٢.

١٥- عبد الرحمن بن عبد الله السعدي، تاريخ السودان، باريس، ١٨٩٨، ص٩.

١٦- حسن الوزان، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي، ١٩٨٣،ط٢ ، ج٢، ص١٦.

١٧- الشريف الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، الجزائر، ١٩٥٧، ص٨.

١٨- عبد الرحمن زكي، تاريخ الدولة الاسلامية بأفريقية الغربية في ظل الاسلام، القاهرة ، ص٨٦-٨٧.

١٩- زبادية، الحضارة..، ص١٦.

٢٠- عن الماندنجو والقبائل المنضوية تحت اسم الماندنجو انظر: القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة النشا ، المؤسسة الوطنية للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ج٥.

٢١- تقع مدينة كيرينا على الضفة اليسرى من النيجر بين باماكو وكانغابا، انظر: ج.ت. نياني " مالي والتوسع الثاني للماندنج" ، تاريخ أفريقيا العام، (اليونسكو) ، م.٤، ١٩٨٨ ، ص١٤٣.

٢٢- ابن خلدون، ج٦، ص٢٠٠.

٢٣- لمزيد من المعلومات حول شخصية سونديانا كينا انظر: ج .ت.نياني، "مالي والتوسع الثاني للماندانغ" ، ص١٤٢-١٤٤.

٢٤- رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، (د.ت)،ص٦٩٠.

٢٥- نعيم قداح، أفريقيا الغربية، مطبعة الوحدة، دمشق، ١٩٦٢،ص٥٦.

٢٦- كعت، ص٣٨-٣٩ .

٢٧- والتر رودني، أوروبا والتخلف في افريقيا، (ترجمة)،أحمد القصير، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٨، ص٩٠.

٢٨- نياني ،"مالي والتوسع الثاني للماندنغ" ، ص١٦٨- ١٨١ .

٢٩- ابن خلدون، ج٦، ص٢٠٠.

٣٠- ديفستون، لمحات..،ص٤٨.

٣١- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ٩٥٤-٩٥٥. نقلا عن حامد عمار، علاقات مصر بالدول الافريقية، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة،١٩٩٦، ص٩٠.

٣٢- ابن خلدون ، ج٥، ص١٤٤.

٣٣- المصدر نفسه، ج٦،ص٢١٢.

٣٤- دنيز بولم، الحضارات الأفريقية، (ترجمة) ، نسيم نصار، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، ١٩٧٨، ص٧٢.

٣٥- ابن خلدون، ج٦، ص٢٠٠-٢٠١.

obeikandl.com

٣٦- ابراهيم علي طرخان ، امبراطورية البرنو الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥،ص٧٩.انظر كذلك، نياني،"مالي والتوسع الثاني للماندنغ"،ص١٦٠-١٦٣.

٣٧- رحلة ابن بطوطة، ص٦٨٨.

٣٨- مادينا لي - تال، "تدهور امبراطورية مالي" ، تاريخ أفريقيا العام، مجلد٤،ص١٩٤-١٩٥.

٣٩- وللاطلاع على روايات أخرى تتعلق بأصل ملوك سنغاي انظر: كعت، ص٢٩-٣١.

٤٠- زبادية، مملكة سنغاي،ص٢٦.

٤١- جميلة إبحمد التكيتك، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير ١٤٩٣-١٥٢٨م، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٩٨.

٤٢- لمزيد من المعلومات انظر: ك. مادهو بانيكار، الوثنية والإسلام،(ترجمة)، أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، ط٢،ص١٣٣.

٤٣- المرجع نفسه، ص١٣٤-١٣٦.

٤٤- بانيكار، ص٤٢٢-٤٢٣.

٤٥- زبادية، الحضارة ..،ص٢٤.

٤٦- انظر: كعت، ص١٥٨-١٦٤.

٤٧- المصدر نفسه، ص٣١٣.

٤٨- لمعرفة المزيد عن الشعوب والحواضر التي كانت تابعة لكانم انظر: ابن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ، (تحقيق) ، إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٩٣ - ٩٦ ، ١٠٥ - ١٢٧ .

٤٩- لمزيد من المعلومات انظر: ديرك لابحي ، " ممالك تشاد وشعوبها " ، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الرابع ، ص٢٤٨.

٥٠- بانيكار، ص١٨١-١٨٢.

٥١- جوزيف-كي-زيربو، تاريخ افريقيا السوداء، ترجمة، يوسف شلب الشام ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٩٤،القسم القسم الاول ص٢٨٥-٢٨٦.

٥٢- زبادية ، الحضارة..،ص٢٥.

٥٣- زيربو، ق١،ص٢٦٠.

٥٤- لابحي،" ممالك تشاد.."،ص٢٥٦

٥٥- بانيكار، ص١٨٠؛ زيربو، ق١، ص٢٦٠.

٥٦- المغربي، ص٩٤.

٥٧- ابن خلدون، ص٢٢١ .

٥٨- المرجع نفسه ، ص٢٢٦.

٥٩- بانيكار، ص١٩٥-١٩٦.

٦٠- المرجع نفسه ، ص١٩٦.

٦١- السعدي ، ص٢١.

٦٢- كعت ، ص١٧٩.

٦٣- بانيكار ، ص٣٨٥.

٦٤- زبادية ، مملكة سنغاي ، ص١٠٨.

obeikandl.com